(السنة الرابعة عشرة)

العدد الرابع — أكتوبر - ديسمبر ١٩٤٨

صحيفة دار العلوم

(ج ع ١٩٣٤)

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير — محمد نجيب عنانه

رئيس التحرير — محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً

خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

النقد في الأدب العربي

للأستاذ السباعي بيومي

وكيل كلية دار العلوم

رابعا - في العصر العباسي

٤ — العهد الرابع

من ٤٤٧ — ٦٠٦ هـ

وقع الخلفاء العباسيون في هذا العهد ، تحت قبضة السلاجقة الأتراك ، البعيدين عن تفهم اللغة وتذوق آدابها ؛ بعد آل بويه الأدباء بله الكتاب والشعراء ، فنال صورتي الأدب كتابته وشعره ، ضعف قلل من كمهما وغض من جمالها ، وكان أنكى بالشعر منه بالكتابة ، لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى ، إذا لم يجد المتذوقين النصراء ، في حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضري ، يضطر إلى الأبقاء عليها ذووه مرغمين ، وإن لم يفقهوا ما لها من حسن وجمال .

وقد تبع هذا التأثير في الأدب تأثر في النقد ، فقل رجاله وكسدت سوقه ، على أنا لا نغمط في هذا العصر شخصيتين من شخصياته لكل منهما مكان في عالم النقـــد على أصول البلاغة ووحي الذوق ، هما عبد القاهر الجرجاني وابن الأثير الموصلي ، فقد كان أولها في أوائل هذا العهد ، كما كان الآخر في أواخره ، علما في النقد ، ومناراً يهتدى به في طريقه .

فأما عبد القاهر فهو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى

سنة ٤٧١ من كبار أئمة النحو واللغة ومؤسسى علوم البلاغة والنقد ، وله فى هذه النواحى تآليف كثيرة ، منها فى البلاغة والنقد كتاباه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، وفى كليهما أبحاث شتى فى النحو والفصاحة والشعر والبلاغة وما يتصل بهما من النقد والمحاكمة ، ويمكن اعتبارهما كتابا واحدا فى علوم البلاغة الثلاثة من معان وبيان وبديع ، وفى النقد المبنى على أصول هذه العلوم وعلى الذوق الأدبى التام النضوج ، وليس بالكتابين تمييز بين أبحاث كل علم من أبحاث الآخر ، حيث لم يلك ذلك التمييز قد تم إلى حيث هذا العهد لبياني البلاغيين ، إنما تم تمامه على أيدى مناطقتهم بعد وأغلبهم من الأعجام .

وأما ابن الأثير فهو أبو الفتح نصر الدين بن أبى الكرم محمد الشيبانى المعروف بضياء الدين بن الأثير الموصلى أو الجزرى المتوفى سنة ٦٣٧ ، وهو شقيق عز الدين بن الأثير المؤرخ المتوفى قبله سنة ٦٣٠ ومجد الدين بن الأثير المحدث المتوفى قبلهما سنة ٦٠٦ ، وهناك ابن أثير رابع أديب بعد هؤلاء الثلاثة هو عماد الدين بن الأثير أحد شراح قصيدة ابن زيدون وقد توفى سنة ٦٩٩ ، ولابن الأثير موضوع كلامنا مؤلفات فى البلاغة والأدب والنقد أهمها كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » .

وبعد فها نحن أولاء مقدمون بين يديك كلمة عن كل من عبد القاهر وابن الأثير تشرح مهيعه فى النقد الأدبى ، الأول فى كتابيه ـ أو كتابه ـ دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، والثانى فى كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، إن شاء الله .

عبد القاهر

فى كتابيه دلائل الأعجاز وأسرار البلاغه

تناول عبدالقاهر فى كتابيه السابقين - الدلائل والأسرار - موضوعات شتى تتصل بالنقد الأدبى على قرب ، وأخرى أشت تتصل به من بعد ، مشاركا فى بعض الأولى الناقدين الكبيرين قبله الجرجانى والآمدى ، ومختصا دونهما ببعضها الآخر ، أما التى تتصل بالنقد من بعد فقد استأثر بها دونهما ، لأنها من الصور البلاغية التى يتحاكم إليها النقاد فى كثير الأحيان ، وهو للبلاغه صنف كتابيه المذكورين ، وإليك كلمة موجزة أو إشارة عابرة عما عرض له تنبىء عن أسلوبه فى النقد ومكانته فيه : —

١ — تعرض عبد القاهر أول ما تعرض فى الدلائل - بعد حضه على رواية الشعر وعيبه من زهدوا فيه ، وتعرض لمسألة هامة هى أن نظم الكلام يتوقف على التركيب النحوى وفند من أنكروا على النحو ذلك ، ترى هذا منه فى الصفحات ١٣ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٦٠ وما يلى هذه الصفحات فى كثير أو قليل ، وكان من أبين قوله فى ذلك ما جاء فى الصفحة الستين حيث يقول مما قال ، « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأحواله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ رسومه التى رسمت فلا تخل بشىء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه ، غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، ينظر فى الخبر إلى الوجوه التى يراها فى قوله ، زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد وانطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو ينطلق . وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى يراها فى قوله ، إن تخرج أخرج وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج . وفى الحال إلى الوجوه التى يراها فى قوله جاءنى زيد مسرعا وجاءنى يسرع ،

وجاءنى وهومسرع وجاءنى وهو يسرع وجاءنى قد أسرع وجاءنى وقد أسرع، فيوف لكل من ذلك موضعه حيث ينبغى له . وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصه فى ذلك المعنى ، فيضع كلامن ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يجىء بما فى نفى الحال وبلا إذا أراد نفى الاستقبال وبان فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون . وينظر فى الجمل التى ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الفاء من موضع ثم أو من موضع أم وموضع لكن من موضع بل . ويتصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام كله ، وفى الحذف والتكرار والأضمار والأظهار، فيضع كلا من ذلك موضعه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له . هذا هوالسبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له ، ولست ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، وتجده يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه ».

وبعد أن قرر هذا أخذ يسرد الشواهد على ذلك فى ناحيتى الفساد والصحة والنقص والفضيلة ، فذكر عدة أبيات لفحول الشعراء قد فسد نظمها لسوء تأليفها ، ثم خرج من ذلك يقول مدللا على الحسن ، وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ماتواصفوه بالحسن وتشاهدوا له بالفضل لأجل النظم خصوصا دون غيره ، من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل فى النظم ، وتأمله فاذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت، فانظر الى حركات الأريحية لأمم كانت وعندماذا ظهرت فانك ترى عيانا أن الذى قلت لك كما قلت ، اعمد الى قول البحترى :

بلونا ضرائب من قد ترى فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا مصيبا
تنقل فى خلق سؤدد سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثيبا

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ، ووجدت لها اهترازا فى نفسك فعد فانظر فى السبب واستقص فى النظر فانك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التى يقتضيها علم النحو ، فأصاب فى ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى ما يوجب الفضيلة ، أفلا ترى أن أول شىء يرد قلبك منها قوله ، هو المرء أبدت له الحادثات بالبدء بالضمير ، ثم قوله تنقل فى خلق سؤدد بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين اليه ، ثم قوله فكالسيف وعطفه بالباء مع حذفه المبتدأ ثم تكريره الكاف فى قوله وكالبحر ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه ، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر . وبعد أن صنع مثل هذا الصنيع فى أبيات لابراهيم بن العباس ، قال ، وهكذا السبيل أبدا فى كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا إلى النظم ، وفضل وشرف أحيل فيهما عليه .

٢ — وتعرض كذلك لنظرية هامة طال فيها الاخذ والرد بين رجالات الأدب والبلاغة ، هى نظرية اللفظ والمعنى أيهما ترجع إليه مزية الكلام مفردا وإذا رجعت اليهما معا فما علاقة كل بصاحبه ، وأيهما فى هذه الحالة أوفى قسطا وأوفر حظا ، فقرر فيما قرر أن العبرة بالمعنى من حيث دلالة اللفظ عليه لا باللفظ فى ذاته ، وأفاض فى ذلك أيما أفاضة بالصفحات ٢٤ ، ٣٧ ، ١٨٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٢ من الدلائل ، وكثيرا ما سلخ بعد الصفحة صفحات فى الكلام ، وهاتان نبذتان اثنتان .

فأما إحداهما فقد قرر فيها النظرية ذاتها وهى :

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من

حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر ، وبعد أن مثل لذلك بحسن كلمة أخدع فى قوله الحماسى :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الأصغاء ليتا وأخدعا

وقبحها فى قول أبى تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وكذا حسن كلمة شىء فى قول أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

وسخفها فى قول المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

قال فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هى لفظ وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذلك حالها مع أخواتها المجاورة لها ، لما اختلفت بها الحال كما رأيت ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبدا . . .

وأما الأخرى فقد ساقها دفعا لشبهة قد يعرضها معارض فى رأيه وهى أن يشبه الكلم فى ضم بعضها إلى بعض بضم الناسج غزل الإبريسم بعضه إلى بعض دون نظر إلى شىء غير هذا الضم من المعانى التى يجب فى نظر عبد القاهر أن تكون الموجهة فى التأليف ، وذلك حيث يقول : « وفساد هذا وشبيهه أن ها هنا استدلا لطيفا تكثر بسببه الفائدة ، وهو أن يتصور أن يعمد عامد إلى نظم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التى أرادها الناظم له ويفسدها عليه ، من غير أن يحول منه لفظا عن موضعه أو يبدله بغيره أو يغير شيئا من ظاهر أمره على حال ، مثال ذلك أنك إن قدرت فى بيت أبى تمام من وصف القلم

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

أن لعاب الأفاعى مبتدأ ولعابه خبر كما يوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه ، وأبطلت الصورة التى أرادها فيه ، وذلك أن الغرض أن يشبه مداد القلم بأرى الجنى على معنى أنه إذا كتب فى العطايا والصلات أوصل إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها وأدخل السرور واللذة عليها ، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان لعابه مبتدأ ولعاب الأفاعى خبراً ، فاما تقديك العكس فانه يبطل ذلك ويمنع منه ألبتة ويخرج الكلام إلى مالا يجوز أن يكون مراداً فى مثل غرض أنى تمام ، وإذن فلو كان حال الكلم فى ضم بعضها إلى بعض كحال غزل الابريسم لكان ينبغى ألا تتغير الصورة الحاصلة من نظم كلم حتى تزال عن مواقعها ، كما لا تتغير الصور الحادثة عن ضم الابريسم بعضه إلى بعض حتى تزال الخيوط عن مواضعها .

٣ - وعرض للذوق يجعله الركن الركين فى التحاكم والأصل الأصيل فى إدراك القيم والمزايا ، عرض له عرضا غير مخصص فى مواضع تعيى الحصر ، وتعرض له قاصدا ومخصصا فى موضعين من الدلائل شغل أحدها الصفحات ٢٠٧ — ٢١٢ وسـود الآخر الصفحات ٣٩٣ — ٤٠٢ ، فكان مما قال فى الأول ، بعد أن تكلم طويلا عن اللفظ والنظم ، وبخاصة عن المزايا والفضائل ، « اعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل كلام ، فيجد الأريحيـة تارة ويعرى منها أخرى ، وحتى إذا عجبته عجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه ، فأما من كان الحالان والوجهان عنده أبدا على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة وإلا إعرابا ظاهراً ، فما أقل ما يجدى الكلام معه ، فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الاحساس بوزن الشعر ، والذوق الذى يقيمه به والطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره ومزاحفه من سالمه وما خرج من البحر مما لم يخرج منه ، فى أنك لا تتصدى له ولا تتكلف تعريفه ، لعلمك أنه قد

عدم الاداة التى منها يعرف والحاسة التى بها يجد ، وليكن قدحك فى زند وار والحك فى عود أنت تطمع منه فى نار . . . »

وكان مما قال فى الثانى يعنى الأحساس بالمزية عن طريق الذوق « إن هذا الأحساس قليل فى الناس ، حتى إنه ليكون أن يقع للرجل الشىء من هذه الفروق والوجوه فى شعر يقوله أو رسالة يكتبها الموقع الحسن ، ثم لا يعلم أنه قد أحسن ، فلست تملك إذن من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبع إذا قد حته وري وقلب إذا أريته رأى ، فأما وصاحبك لا يرى ما تريه ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت رام منه فى غير مرمى ومعن نفسك فى غير جدوى ، وكما لا تقيم الشعر فى نفس من لا ذوق له ، كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التى بها يفهم . إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم له أنه أوتيها وأنه ممن يكمل للحكم ويصح منه القضاء ، فجعل يقول القول لو علم غيه لاستحيا منه ، فأما الذى يحس بالنقص من نفسه ويعلم أنه قد علم علما قد أوتى أكثر منه سواه ، فأنت منه فى راحة ، وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره وأن يتكلف ما ليس بأهل له . . . »

ومما يذكر فى هذا الموطن فضلا لعبد القاهر على زميليه الآمدى والجرجانى ، أنه لم يرض الوقوف عند إحساس الذوق بمكان المزية والحسن دون المضى فى تعرف العلة والسبب ، فمضى طموحا إلى هذا التعرف طامعا أن يصل منه إلى الكثير وإن أعياه القليل ، استمع إليه يقول فى هذا الموضع مما قال ، حين ذكر عادى الاحساس بالذوق يذكر هؤلاء الزاهدين فى تقصى العلة والبحث ، « واعلم أن هؤلاء وإن كانوا هم الآفة العظمى فى هذا الباب ، فإن من الآفة أيضا من زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العلة فى قليل ما تعرف المزية فيه وكثيره ، وأن ليس إلا أن تعلم أن هذا التقديم وهذا التنكير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن ، وأن له موقعا من النفس وحظا من القبول ، فاما أن تعلم لم كان ذلك وما السبب ، فما لا سبيل إليه ولا مطمع فى الاطلاع عليه ، فهو بتوانيه والكسل فيه فى حكم من قال ذلك ، واعلم أنه ليس إذا لم

يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر فى الكل ، ولأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل، فتجعله شاهداً فيما لم تعرف، أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم والتفهم وتعودها الكسل والهوينى . . . »

٤ ـ وتناول فيما تناول السرقة والموازنة وهما من واد واحد ، فأما السرقة فقد تناولها فى موضعين اثنين من الأسرار وقع أولهما فى الصفحات ٢١٣ — ٢٥٩ ووقع الآخر فى الصفحات ١٧٤ - ٢٨٣ .

ـ تكلم فى الأول على المعانى من حيث قابلية بعضها أن يكون موضع أخذ وعدم قابلية بعضها الآخر . فقال إن من المعانى ما هو عقلى ومنها ما هو تخييلى ، فالعقلى هو الذى يقال إنه صدق فما أثبته ثابت وما نفاه منفى، وأكثر هذا منتزع من القرآن والحديث وكلام الصحابة ومأثور السلف من الأمثال السائرة والحكم القديمة كقول القائل « يعنى ابن الرومى » .

وما الحسب الموروث لادر درّه ... بمحتسب إلا بآخر مكتسب

وقول محمد بن الربيع الموصلى :

ووزن كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقول المتنبى :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

وقوله أيضا :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ونحو هذا من المعانى الصريحة التى يشهد لها العقل بالصحة، وتتفق العقلاء على الأخذ بها فى كل جيل وأمة ، ويوجد لها أصل فى كل لسان ولغة ، ومثل هذا النوع على إطلاقه إذا اشترك فيه شاعر وشاعر لا يقال فيه إن هذا سرق من ذاك . أما التخييلى فهو ما كان على العكس من ذلك ،

وهو كثير المسالك مفتن المذاهب لا يكاد يحصر . فمنه ما يتلطف فى صنعته حتى يعطى شبها من الحق ويغشى رونقا من الصدق كقول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وكقول الآخر فى الشيب :

الشيب كره وكره أن يفارقنى أعجب بشىء على البغضاء مودود

ومنه ما يعمدون إليه حين يريدون تفضيل شىء أو تنقيصه ومدحه أو ذمه ، من نقل بعض صفات لغيره تشاركه وليست سبب الفضيلة والنقيصة ، كقول البحترى فى الشيب أيضا :

وبياض البازى أصدق حسنا إن تأملت من سواد الغراب

وكذلك قوله فيه :

والصارم المصقول أحسن حالة يوم الوغى من صارم لم يصقل

ومنه ما يعمدون فيه إلى الوصف الذى هو خلقة فى شىء فيجعلونه قد حصل له من الممدوح كقول ابن بابك :

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك منتحل

حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل

ومنه أن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء أنها كانت لعلة يختلقها الشاعر كقول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حمت به فصيبها الرحضاء

وهذا النوع الأخير كثير جداً وقد مثل له ولما يشبهه بعشرات الأمثلة .

وقريب من هذا أن يكون لمعنى من المعانى أو فعل من الأفعال علة مشهورة عن طريق الطبع أو العادة فيمنع الشاعر تلك العلة ويضع له أخرى ليست بعلة كقول المتنبى :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

وقول أبى طالب المأمونى :

لا يذوق الأغفاء الا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا

وليس من وادى هذا البيت الأخير فى الطيف قول القائل فيه .

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا

إذ أن من الحقيقة أن المغرم قد ينام إذا بعد عهد حبيبه به ليرى طيفه :

ومن التخيل ما قد يترك فيه التعليل تناسيا للتشبيه كأن الكلام على الحقيقة كقول البحترى :

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق

وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤها وفقا من الغرب والشرق

ولهذا النوع غزارة مستفيضة ذكر منها عبد القاهر الكثير، ومما له طبقة عالية فيه قول الفرزدق :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر

أجار بنات الوائدين ومن يجر على الموت تعلم أنه غير مخفر

إلى غير هذه الأنواع مما يجد الشاعر فيه عن طريق التخيل سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدىء فى اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعانى متتابعا ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهى ، وفيها تتأتى السرقة ويكون الأخذ .

وتكلم فى الموضع الثانى عن حقيقة السرقة فقال ، إذا اتفق الشاعران ، لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة والعموم كوصف الممدوح بالشجاعة والسخاء أو وصف الفرس بالسرعة أو ما جرى هذا المجرى ، أو يكون فى وجه الدلالة على ذلك الغرض، بأن يذكر ما يستدل به على إثبات تلك الصفات ، كوصف الرجل حال الحرب بالابتسام - ثم قال - فأما الاتفاق فى عموم الغرض فلا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة، لعمومه وتساوى الناس فى معرفته ، والا فمن يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر فى تصور معنى الشجاعة وأنها مما يمدح به ، وأن الجهل ما يذم به ، وأما الاتفاق فى وجه الدلالة ، فان كان مما اشترك الناس فى معرفته لاستقراره فى العقول أو العادات ، كان حكمه حكم العموم الذى تقدم ذكره كالتشبيه بالأسد

فى الشجاعة وبالبحر فى السخاء وبالبدر فى البهاء وهكذا، وان كان ما لا ينتهى إليه المتكلم إلا بنظر وتدبر ولا يناله إلا بطلب واجتهاد، بأن كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرق بالنظر، وعليه كم يفتقر إلى شق بالفكر، أو كان درا فى قاع بحر يحتاج إلى الغوص، أو ممتنعا فى شاهق يتطلب الصعود، أو كامنا كالنار فى الزند لا تظهر إلا بالقدح، أومشابكا لغيره كعروق الذهب لا تنال إلا بالحفر والفصل، فهذا هو الذى يدعى فيه الاختصاص والسبق، ويجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد، فيقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين، وأن أحدهما زاد على الآخر أو نقص.

على أن الأول الذى وسم بالمشترك العامى، والذى ألحق به من الثانى وهو الظاهر الجلى قد يكونان كهذا الأخير محل سرقة وأخذ إذا لحقتهما صفة وعمل فيهما نقش عن طريق الكناية والتعريض أو الرمز والتلويح، كقول القائل مادحا:

إن السحاب لتستحيى إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيهـــا

وكقول الآخر ذاما:

يا حاجب الوزراء إنك عندهم سعد ولكن أنت سعد الذابح

ومن عجيب هذا قول ابن المعتز يذم القمر:

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مشكلى طيب الكرى ومنغصى
أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلخ بهقا كلون الأبرص

فقد حول صفات الجمال فيه إلى قبح وعكسه من تحويل صفات القبح إلى جمال ما جاء فى مرثية أبى الحسن لابن بقية حين صلب، ومطلعها

علو فى الحياة وفى الممات لحق تلك إحدى المعجزات

فقد قلب جملة ما يتنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها بتأويلات ترى فيها وبها العجب.

أما الموازنة فقد تناولها فى موضع واحد من الدلائل سود فيه الصفحات ٣٠١ — ٣٧٧ وهذا تصوير لما أتى به هناك : —

بدأ ما كتب بقوله « وقد أردت أن أكتب جملة من الشعر الذى أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا فى معنى واحد ، وهو ينقسم قسمين ، قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا، وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب ، وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور . وأبدأ بالقسم الاول الذى يكون المعنى فى أحد البيتين غفلا وفى الآخر مصوراً مصنوعاً . ويكون ذلك إما لأن متأخراً قصر عن متقدم ، وإما لأن هدى متأخراً لشىء لم يهتد إليه المتقدم ، قال ذلك ثم أورد لهذا القسم ستة وثلاثين مثلا، منها فى النوع الذى قصر فيه المتأخر عن المتقدم قول البحترى .

إذا محاسنى اللاتى أدل بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

مع قول أبى تمام :

لئن كان ذنبى أن أحسن مطلبى أساء ففى سوء القضاء لى العذر

وقول أبى تمام :

تدعى عطاياه وفراوهى إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا

مع قول أمية بن أبى الصلت :

عطاؤك زين لامرىء إن أصبته بخير وما كل العطاء يزين

وقول المتنبى .

راميات بأسهم ريشها الهد ب تشق القلوب قبل الجلود

مع قول كثير :

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يجز ظواهر جلدى وهو فى القلب جارح

ومنها فى النوع الذى هدى فيه المتأخر لشىء لم يهتد إليه المتقدم قول المتنبى:

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض ومن فوقها والبأس والكرم المحض

مع قول البحترى :

ظللنا نعود الجود من وعكك الذى وجدت وقلنا اعتل عضو من المجد

وقول المتنبى :

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

مع قول أبى تمام :

الصبح مشهور بغير دلائل من غيره ابتغيت ولا أعلام

وقول خالد الكاتب :

رقدت و لم ترث للساهر وليل المحب بلا آخر

مع قول بشار :

تهيت تراعى النجم ترجو نفاده وليس لليـــل العاشقين نفاد

أما القسم الثانى فقد صدره بقوله « ذكر ماأنت ترى فيه فى كل واحد من من البيتين صنعة وتصويرا وأستاذية على الجملة » ثم أورد له عشرين شاهدا ، ذكر لآخيرها وكان فى وصف الشعراء الشعر وعمله وإدلالهم به ، عشرين مثلا ، وعقب على بعضها تعقيبا طال أو قصر على العكس فى شواهد القسم الأول الذى تركه بغير تعقيب بل ولا تمييز بين نوعيه .

من ذلك قول رجل من الخوارج أتى به الحجاج فى جماعة من أصحاب قطرى فقتلهم ومن عليه ، فلما عاد إلى قطرى قال له عاود قتال عدو الله فقال :

أأقاتل الحجـــاج عن سلطانه بيـد تقر بأنهـــا مولاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه فى الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث الأقوام أن صنائعا غرست لدى فحنظلت نخلاته

مع قول أبى تمام

أسربل هجر القول من لو هجوته إذن لهجانى عنه معروفه عندى

فمن هذا الذى ينظر الى بيت الخارجى وبيت أبى تمام فلا يعلم أن صورة المعنى فى ذلك غير صورته فى هذا ، كيف والخارجى يقول « واحتجت له فعلاته » ويقول أبو تمام « إذن لهجانى عنه معروفه عندى » ومتى كان احتج وهجا واحداً فى المعنى .

ومنه مما ذكره القاضى أبو الحسن ، فيما ذكر فيه تناسب المعانى ، بيت أبى نواس

خليت والحسن تأخذه تنتقى منه وتنتخب

وبيت عبد الله بن مصعب

كأنك جئت محتكماً عليهم تخير فى الأبوة ما تشاء

وذكر أنهما معا من بيت بشار

خلقت على ما فى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا

والأمر فى تناسب هذه الثلاثة ظاهر ، ثم إنه ذكر أن أبا تمام قد تناوله فأخفاه حيث قال :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

ومنه مما ذكره فى وصف الشعر قول أبى تمام

إليك أرحنا عازب الشعر بعد ما تمهل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى سمائك أنسها من المجد فهى الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت حياضك منه فى السنين الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منا أعقبت بسحائب

مع قول البحترى

أيذهب هذا الدهر لم ير موضعى ولم يدر مامقدار حلى ولا عقدى
ويكسد مثلى وهو تاجر سؤدد يبيع ثمينات المكارم والمجد
سوائر شعر جامع بدد العلا تعلقن من قبلى وأتعبن من بعدى
يقدر فيها صانع متعمل لأحكامها تقدير داود فى السرد

هذا وقد جرت لعبد القاهر موازنات لمناسبات كثيرة فى مواضع شتى، من ذلك ما ذكره بين قول سعيد بن حميد .

وعد البدر بالزيارة ليلا فاذا ما وفى قضيت نذورى
قلت يا سيدى ولم تؤثر الليل على بهجة النهار المنير
قال لى لا أحب تغيير رسمى هكذا الرسم فى طلوع البدور

وقوله في ضد ذلك :

قلت زوري فأرسلت أنا آتيك سحره
قلت فالليل كان أخفى وأدنى مصره
فأجابت بحجة زادت القلب حسره
أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

وينبغي أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتاً للزيارة في تلك ، والليل في هذه ، فاما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق فمثل وشبيه وليس بضد ولا نقيض .

٥ — وتناول الاستعارة وحدها أو معها غيرها كثيراً ، وكان ذلك منه في ثلاثة مواضع من الأسرار هي ٢٠ — ٦٥ ، ١٩٢ ، ٢١٣ ، ٢٦٠ — ٢٧٤ ومثلها بالدلائل هي ٥١ — ٦٥ ، ٣١٣ — ٣١٨ ، ٣٢٣ — ٣٣٤ ، وكان مما دونه في ذلك ما نعبر عنه بالآتي :

قال في تعريف الاستعارة « اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه فيكون هناك كالعارية » غير أنه جعل منها قسما لا يكون للنقل فيه فائدة ، وعرفه بأنه ما وقع عن طريق التوسع اللغوي في الأسماء التي اختلفت باختلاف أنواع الحيوان كالشفة للانسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس مثلا حيث يستعمل لفظ من هذه مكان آخر كقول الراجز يجعل صوت الماء في أعناق الابل وهي تشرب كصوت الخمار .

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريدها وبين الجحفل

وعرف المفيد بأنه ما كان للنقل فيه فائدة تكشف عن معنى من المعاني وغرض من الأغراض ، وقد عنى بهذا القسم حتى اعتبره الاستعارة في الحقيقة على ما سيأتي آخر القول وجعله نوعين ، نوع تقع الاستعارة فيه عن نقل اللفظ عن معناه الأصلي إلى معنى آخر يجري عليه كقولك « كلمتنا ظبية » وأنت

تعنى امرأة ، ونوع يبقى اللفظ فيه على حقيقته ولكنه يوضع موضعا ليس له كيد المسندة للشمال فى قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها

كأنه يريد أن يشير بالنوعين إلى ماأفصح عنه بعد من التصريح والتكنية ، وأخذ يفرع من ذلك ضروبا يدرجها من الضعف إلى القوة . منها أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجودا فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب فى الفضيلة والنقص ، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه كاستعارة الطيران لغير ذى الجناح من قول القائل فى الفرس :

لو يشا طار به ذو ميعة لاحق الآطال نهد ذو خصل

ومنها أن يكون الشبه مأخوذا من صفة هى موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة كقولك « رأيت شمسا ترنو » وأنت تريد إنسانا متهلل الوجه ، فالصفة هنا فى جنسين مختلفين الانسان والشمس وهى فى الضرب الأول لجنس واحد هو الطير والفرس ولكنها مختلفة فيه . ومنها وهو الصحيح الخالص من الاستعارة ، أن يكون الشبه مأخوذا من الصور العقلية كاستعارة النور للبيان الكاشف عن الحق فى قوله تعالى : ـ « واتبعوا النور الذى أنزل معه » سواء فى ذلك ما كان الأخذ فيه من محسوس لمعقول كالآية السابقة ، أو من المحسوس للمحسوس كقوله ﷺ (إياكم وخضراء الدمن) أو من المعقول للمعقول كتنزيل الموجود منزلة المعدوم ، لفقده المعانى التى يظهر بها قدر الشىء على النحو الذى يريده القائل :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ومارزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

و العكس ، لما خلف من آثار تحيى ذكره على النحو الذى يريده القائل

ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور

وبعد فهذه نماذج من أمثلة ساقها للاستعارة الفائقة ، منها قول القائل

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

وقول الآخر

اليوم يومان مذ غيبت عن بصرى نفسى فداؤك ما ذنبي فاعتذر
أمسى وأصبح لا ألقاك واحزنا لقد تأنق فى مكروهى القدر

ولبعض الأعراب

ولرب خصم جاهدين ذوى شذا تقذى عيونهم بهتر هاتر
لد ظأرتهم على ماساءهم وخسأت باطلهم بحق ظاهر

ولابن المعتز

يناجينى الاخلاف من تحت مطله فتختصم الآمال واليأس فى صدرى

وقول آخر وهو مما أنشده الجاحظ

لقد كنت فى قوم عليك أشحة بنفسك إلا أن ما طاح طائح
يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

ولكى تعلم قدر الاستعارة فى نفس عبدالقاهر وحفله بمكانتها فى القول ، استمع اليه يقول فى الضرب المفيد منها ، « اعلم أن الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الأول ، وهى فيه أمد ميدانا وأشد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا ، وأوسع سعة وأبعد غورا ، وأذهب نجدا فى الصناعة وغورا ، نعم وأسحر سحرا ، وأملأ بكل مايملأ صدراً ، ويمتع عقلا ويؤنس نفسا ، ويوفر أنسا ، وأهدى إلى أن تهدى اليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعنى بها الكمال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت فى الشرف والفضيلة باعا لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر ، وردت تلك بصفرة الخفر ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدنها تبرا لم تر مثله ثم تصوغ منها صياغات تبطل الحلى ، وتريك الحقيقى من الحلى ، وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس

إليها الدين والدنيا ، وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها وتستوفى جملة رجالها ..» »

٦ — وأخيرا — فيما نريد أن نذكر — تناول عبدالقاهر الجناس فى موضع واحد وقع بالأسرار من صفحة ٤ - ١٣ وهو إنما ذكر التجنيس احتجاجا لنظرية المعنى على اللفظ ، ولذلك يقول « أما التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، ألا تراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله : —

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل « حتى نجا من فوقه وما نجا » وقول المحدث

ناظراه فيما جنت ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

ألأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول وقويت فى الثانى ، ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع ، فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، لأن المعانى لاتدين فى كل موضع لما يجنبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمعانى هى المالكة سياستها . . . » .

هذا وقد شغل عبدالقاهر باقى الدلائل بأبحاث ، أهمها فى الفصاحة والبلاغة والتقديم والتأخير والفصل والوصل والقصر والأطلاق والكناية والمجاز ، كما شغل باقى الأسرار بأبحاث أهمها التشبيه وباقى أنواع الكناية والمجاز ،

ابن الأثير

في كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر »

بنى ابن الأثير كتابه بعد فاتحته على مقدمة ومقالتين ، فأبان في الفاتحة مكانة البيان من النظم والنثر ومكانته هو إزاء غيره من البيان ، ثم ضمن المقدمة أصول علم البيان ، أما المقالتان فقد ضمنهما فروع ذلك العلم ، فتكلم في الأولى على الصناعة اللفظية وتكلم في الثانية على الصناعة المعنوية ، وهذا عرض سريع موجز لما يهمنا من كل ذلك ، .

أولا ـ فاتحة الكتاب

عرض فيها لمنزلة البيان من النظم والنثر فجعلها كمنزلة أصول الفقه من الأحكام وأدلتها ، وأخذ يذكر جهود بعض المتقدمين فيه غير راض عنها لمناقص فيها ، ثم خرج من ذلك يقول عن منزلته هو من البيان « كنت قد عثرت على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحداً ممن تقدمني تعرض لذكر شيء منها وهي إذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وقد أوردتها هاهنا وشفعتها بضروب أخر مدونة في الكتب المتقدمة ، بعد أن حذفت منها ما حذفته ، وأضفت إليها ما أضفته ، وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة وإنما هي متبعة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا وعلى غيره من الكتب » إلى أن قال في تقريظ كتابه مدلا به « وإذا تركت الهوى قلت ، إن هذا الكتاب بديع في إغرابه ، مفرد بين أصحابه ، وليس له صاحب في الكتب فيقال إنه من أخدانه أو أترابه » . وقد تعرض في هذه الفاتحة لبيان مكانة الذوق من علم البيان فقال « واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذي هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ،

فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعا ، وأهدى بصراً وسمعا ، وهما يأنك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكانا ، وكل جارحة فيك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بأدمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفاً ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ؛ فان حمل النصال غير مباشرة القتال . .

وانما يبلغ الانسان غايته ماكل ماشية بالرحل شملال

ثانياً - المقدمه

جعل المقدمة عشرة فصول ، أبان فى الأول أن موضوع علم البيان الفصاحة والبلاغة وأحوالها اللفظية والمعنوية ، وفى هذا الفصل خالف عبد القاهر فى مكانة النحو من الفصاحة والبلاغة فقال إن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى . وهذه دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون الكلام على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والاعراب ، ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة . ومن هنا غلط مفسرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى ، وعلى ما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الأعراب منها ، دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

وتكلم فى الثانى عن آلات علم البيان وأدواته وأنها ثمانية ، النحو واللغة والأمثال ومعها الأيام والتآليف المتقدمة لأرباب البيان والأحكام السلطانية والقرآن الكريم والحديث الشريف ثم العروض والقوافى ، والذى يهمنا من ذلك بيانه مكانة الطبع من هذه الآلات والأدوات حيث يقول « وملاك هذا كله الطبع ، لأنه إذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغنى تلك الآلات شيئا ، ومثل ذلك كمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا . . » . أما الفصلان الثالث

الذى جعله فى الحكم على المعانى ، والرابع الذى جعله فى الترجيح بين المعانى ، فهما خير ما عقد فى المقدمة ، كما هو كلامه عنهما حيث يقول عن الثالث ، وفائدة هذا الفصل الاحاطة بأساليب المعانى على اختلافها وتباينها ، وصاحب هذه الصناعة مفتقر إلى هذا الفصل والذى يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة ولا سيما مفسرى الأشعار فانهم به أعنى ، وحيث يقول عن الرابع ، وهذا الفصل ميزان الخواطر الذى يوزن به نقد درهمها ودينارها ، بل المحك الذى يعلم منه مقدار عيارها ؛ ولا يزن به إلا ذو فكرة متقدة ولمحة منتقدة ، فليس كل من حمل ميزانا سمى صرافا ولا كل من وزن به سمى عرافا ، وهذا عرض لبعض ماعرض بالفصلين يرى صدق ما ذكر عنهما ،

ذكر فى الفصل الثالث أن الأصل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب الى التأويل يحتاج إلى دليل ، وأن المعنى مع التأويل يفهم معه غيره ، وهذا الغير إما أن يكون الضد أو خلافه ، فهذه أقسام ثلاثه ولا رابع لها . فالأول وهو ما لا تأويل فيه يقع عليه أكثر الأشعار ولا يجرى فى الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين . والثانى وهو ما يفهم منه المعنى وضده قليل الوقوع جداً وهو من أظرف التأويلات المعنوية ، لأن دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضد ، ويجرى على هذا النهج من الشعر قول المتنبى فى كافور .

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات فى نعمائه يتقلب

فهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان ، أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم والآخر أن المنعم يحسد المنعم عليه ، وأكثر ما كان المتنبى يستعمل هذا القسم فى قصائده الكافوريات ، والقسم الثالث وسط بينهما فى القلة والكثرة ، ومن الدقيق فى هذا القسم قول المتنبى يمدح عضد الدولة .

لو فطنت خيله لنائله لم يرضها أن تراه يرضاها

فهذا يستنبط منه معنيان غير متضاربين ، أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه ونفاستها لا ترضى أن تكون من جملتها لوقوعها دون تلك النفاسة

والآخر أنها لو علمت أنه سيهبها من جملة ما يهب لما رضيت ذلك منه ، إذ هى تنكره خروجها عنه » .

وذكر فى الفصل الرابع وهو مبنى على الثالث ، أن القسم الأول وهو ما لا تأويل فيه لا تعلق للترجيح به إذ لا يحتمل إلا وجها واحداً ، أما الثانى وهو ما يحتمل معنيين فلا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسام لا رابع لها . إذ اللفظ إما أن يكون حقيقة فى أحدهما مجازاً فى الآخر أو حقيقة فيهما جميعا أو مجازاً فيهما كذلك ، فالترجيح بين الحقيقة والمجاز يعلم ببديهة النظر لمكان الاختلاف بينهما ، وذلك كقوله تعالى « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » فالجلود هنا قد تراد حقيقة وقد يراد بها الفروج وهذا هو المعنى البلاغى الذى يرجح المجاز على الحقيقة لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه ، والترجيح بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج إلى النظر ، ومثاله بين الحقيقتين قول النبى ﷺ « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » إذ الخبايا تكون الكنوز وتكون الخراس ، والثانى أرجح لأن مواضع الكنوز غير معلومة حتى تلتمس والنبى لا يأمر بذلك بخلاف الخراس ، ومثاله بين المجازين قول أبى تمام :

قد بلونا أبا سعيد حديثا ... وبلونا أبا سعيد قديما
ووردناه ساحلا وقليبا ... ورعيناه بارضا وحميما
فعلمنا أن ليس إلا بشق الـ ... أنفس صار الكريم يدعى كريما

والشاهد فى الساحل وهو البحر والقليب وهو البئر ، وليس هذا المعنى الحقيقى مرادا ولكن المراد المعنى المجازى ، وهو إنما أنه الكثير القليل لفضل ماء البحر على ماء البئر ، واما أنه غير السبب والسبب إذ ماء البحر لا يحتاج فى جلبه الى ما يحتاج اليه ماء البئر من آلة ، وهذا المعنى الثانى هو المرجح على الأول ، لأنه أدل على بلاغة القائل لسلامته من هجنة التكرار مع عجز البيت فى قوله « بارضا وحميما » والأول النبت أول نجومه والثانى حين يتم نموه أى

القلة والكثرة أيضا ، كما هو أدل على مدح المقول فيه لتعداد حالاته الأربع من تبرع ونوال وإكثار وإقلال . أما بقية الفصول من الخامس إلى العاشر فكان القول فيها فى مسائل علمية أو عادية ويمكن الرجوع إليها هناك .

ثالثا ـ المقالة الاولى

ضمن المقالة الأولى الكلام على الصناعة اللفظية كما سبقت الاشارة ، وقسمها قسمين ، أول تكلم فيه على اللفظة المفردة ، وثانيا تكلم فيه على الألفاظ المركبة ، وقدم للقول تصديرا بدأه بقوله « اعلم أن صاحب هذه الصناعة يحتاج فى تأليفه الكلام الى ثلاثة أشياء ، الأول اختياره الألفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلىء المبددة فانها تتخير وتنتقى قبل النظم ، والثانى نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجىء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها ، والثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الوضع الذى يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلا على الرأس وتارة يجعل قلادة فى العنق وتارة يجعل شنفا فى الأذن ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه ، فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهى الأصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر ، فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة ، وهذا الوضع يضل فى سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر ، فكيف الجهال الذين لم تنفحهم رائحة ، ومن الذى يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، حتى ينظر الى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها فى مواضعها . . »

وأخذ بعد هذا التصدير يتكلم على الكلمة وهى مفردة من حيث إنها قد تروق فى كلام وتكره فى آخر تفضلها فيه غيرها ، ومن حيث الحسن والقبح الذاتيان فيها وضرورة تجنب بعض الحروف فى بنيتها ، ومن حيث الجزالة والرقة ، ومن حيث الصون والابتذال ، ومن حيث التخصص

والاشتراك، الى غير هذه النواحى مما أفاض فيه وأكثر من الاستشهاد له فأجاد، ثم أخذ يتكلم على الألفاظ وهى مركبة فكان مما قال « قدمنا القول فى شرح أحوال اللفظة المفردة وما يختص بها ، وأما إذا صارت مركبة فان لتركيبها حكما آخر ، وذلك أنه يحدث عنه من فوائد التأليف والامتزاجات مما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة ، ومثال ذلك كمن أخذ لآلىء ليست من ذوات القيم الغالية فأحسن الوضع فى تأليفها حتى خيل للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التى كانت منثورة مبددة ، وفى عكس ذلك من يأخذ لآلىء من ذوات القيم الغالية ويفسد تأليفها فيضع من حسنها ، فكذلك يجرى حكم الألفاظ فى التراكيب ، وهذا موضع شريف ينبغى الالتفات اليه والعناية به . ثم أرجع تأليف الألفاظ الى أنواع ثمانية تكلم على كل منها ، وهذا عرض لما ذكر فى التجنيس الذى اعتدنا التعرض لما قاله غيره فيه ، قال عنه إنه غرة شادخة فى وجه الكلام ، والعلماء من أرباب هذه الصناعة قد تصرفوا فيه فغربوا وشرقوا ولا سيما المحدثين منهم الذين ألفوا فيه ، وعرفه بأن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا ، وان كان سمى به أيضا ماتشابهت فيه الألفاظ ، ومثل للقسم الأول الحقيقى بأمثلة جيدة أكثر منها ولا سيما لأبى تمام كقوله :

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة تهتز من قضب تهتز فى كثب
بيض اذا انتضيت من حجبها رجعت أحق بالبيض أبدانا من الحجب

كما مثل للمستكره منه وبخاصة لأبى تمام أيضا كقوله :

ويوم أرشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقا وابلا قصفا

أما ما سمى بالتجنيس مما تشابهت فيه الألفاظ وليس منه على الحقيقة ، فقد جعله ستة أقسام عرف بها ومثل لها على نحو مافعل علماء البديع ولكنه أكثر الأمثله فليرجع اليها هناك .

رابعا ـ المقالة الثانيه

جعل المقالة الثانية للصناعة المعنوية وقد استغرقت نحو الثلثين من الكتاب فقد ذكر فيها ثلاثين نوعا لتلك الصناعة ولكنا سنقف القول على نوعين اثنين فقط تباعا لما جرينا عليه حيث تكلمنا على سلفه عبد القاهر هما الاستعارة . وقد بدأ بها حيث جعلها النوع الأول ، ثم السرقة ومعها الموازنة وقد ختم بهما حيث جعلهما النوع الثلاثين ، موجزين فى الأول وباسطين فى الأخير لوثيق علاقته بالنقد .

ـ الاستعاره

قدم للكلام على الاستعارة بالكلام على المجاز ، فذكر أن الذى انكشف له بالنظر الصحيح أن المجاز قسمان ، توسع فى الكلام وتشبيه ، وأن التشبيه ضربان تام يذكر فيه المشبه والمشبه به ، وهو الذى أطلق عليه اسم التشبيه ، وناقص حذف منه المشبه به واقتصر على ذكر المشبه ، وهو الذى سمى استعارة وعلى ذلك عرف الاستعارة بأنها نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طى ذكر المنقول إليه كقول الشاعر .

فرعاء إن نهضت لحاجتهـــا عجل القضيب وأبطأ الدعص

فانه أراد تشبيه القد بالقضيب ، والردف بالدعص ، فترك ذكر التشبيه مظهرا ومضمرا وجاء الى المشبه وهو القد فأعاره المشبه به وهو القضيب ، وإلى الردف فأعاره الدعص ، والقرينة المفهمة هى قوله « فرعاء إن نهضت لحاجتها » لأن ذلك لا يكون الا امرأة ، فأساس الاستعارة أن يطوى ذكر المشبه أى المستعار له مع أداة التشبيه . أما الذى جعل من التشبيه كقولهم « وجهها قمر » فلم يطو فيه الا ذكر الأداة ، فهو كالتشبيه المظهر الأداة الذى لا شبهة فيه مع الاستعارة ، على أنه ذكر أن من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة باختلاف القرينة ، وذلك حين يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره ، كقول البحترى .

اذا اسفرت أضاءت شمس دجن ومالت فى التعطف غصن بان

فانك إن نصبت شمس دجن وغصن بان ، بالحمل على الضمير فى أضاءت كان ذلك تشبيها لذكر المشبه ، وان ذكرتهما بالرفع كان هذا استعارة لانتفاء المشبه بانتفاء الحمل . ثم عاد إلى التوسع المجازى فقال ، إنه ما يقع عن غير مشاركة ، وإنه ضربان ، أحدهما أن يرد على وجه الاضافة وهو قبيح الاستعمال لأنه يؤول على التشبيه المضمر الأداة دون اشتراك كقول أبى نواس

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

وكذلك قوله :

ما لرجل المال أمست تشتكى منك الكلالا

فاضافة الصوت الى المال قبيحة وإضافة الرجل اليه أقبح ، والثانى ماورد على غير وجه الاضافة وهو حسن كقول أبى تمام فى مخاطبة الربع :

أميدان لهوى من أتاح لك البلى فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

ووجه حسنه يرجع الى أنه يبغى مساءلة الأهل الذين كانوا فيه .

هذا وقد استحسن بعد الذى ذكر ، أن يفعل فعل عبد القاهر فى الالمام بجهرة من أمثلة الاستعارة التى يستفيد بها المتعلم مالا يستفيده بذكر الحد والحقيقة ، فأتى ببعض الآيات القرآنية كقوله تعالى « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » وببعض الأحاديث النبوية كقوله ﷺ « لا تستضيؤا بنار المشركين » يعنى مشورتهم ، وببعض المأثور عن العرب كقولهم عند رؤية الهلال « لا مرحبا باللجين » وبعدها أتى على جهرة كبيرة من الاشعار تقارب العشرين مثلا ، كقول مسكين الدارمى .

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنه غزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

يعنى بالغزال المقنع المرأة الحسناء . وكقول ديك الجن يعنى بواطن أمره وظواهره .

أسرى طريدا للحياء من التى زعموا ولست لرهبة بطريد
وغدا تبين ما براءة ساحتى لو قد نفضت تهائمى ونجودى

وكقول المتنبى وهو من المليح النادر، يعنى خيل الممدوح:

وأصبحت بقرى هنريط جائلة ترعى الظبى فى خصيب نبته اللمم
فما تركن بها خلدا له بصر تحت التراب ولا بازا له قدم
ولا هزبرا له من درعه لبد ولا مهاة لها من شبهها حشم

ثم قول الشريف الرضى:

إذا أنت أفنيت العرانين والذرى رمتك الليالى من يد الحامل الغمر
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى فمن ليد ترميك من حيث لا تدرى

وأخيرا قال وهو ما نختم به ما ذكرناه عنه فى الاستعارة « وإذ قد تبينت أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له فانها لا تجىء إلا ملائمة مناسبة، لا توجد فيها مباينة ولا تباعد، لأنها لا تذكر مطوية إلا بسياق المناسبة بين المستعار منه والمستعار له، ولو طويت ولم تكن هناك مناسبة بينهما لعسر فهمها ولم يبن المراد منها ».

السرقه والموازنه

أفاض ابن الأثير القول فى السرقة والموازنة حتى شغل بذلك خمسا وعشرين صفحة من كتابه، وهذا تصوير لما قال بطريق النقل عنه حينا والتلخيص لما ذكر حينا آخر :—

السرقة — قال يقدم للسرقة « ذهبت طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول، إن لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا، فان قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية وإنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طرق مرارا، وهذا القول وإن دخل فى حيز الامكان لا يلتفت إليه، لأن الشعر من الأمور المتناقلة، والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعن لها من الحاجات، ولم تزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرىء القيس وهو قبل الاسلام بمائة سنة زائد افناقصا، فقصد القصائد

وهو أول من قصد ، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية ، وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة ، ثم تتابع المقصدون واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد وكثرت المعانى المقولة بسببه ، ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة ، واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الحمدانية ، فعظم الشعر وكثرت أساليبه وتشعبت طرقه وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى وأبو الطيب المتنبى . فاذا قيل إن المعانى المبتدعة سبق إليها ولم يبق منها معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته ، والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ، إلا أن من المعانى ما يتسارى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر ، لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول ، كقولهم فى الغزل :

عفت الديار وما عفت آثارهن من القلوب

وقولهم إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وإن الواشى لو علم بمزار الطيف لساءه ، وكقولهم فى المديح ان عطاءه كالبحر وكالسحاب وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد وإنه يجود ابتداء من غير مسألة ، وكقولهم فى الرثاء إن هذا الرزء أول حادث وإنه استوى فيه الأباعد والاقارب وان الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة وإنه بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب ، وأشباه تلك ، وكذلك يجرى الامر فى غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة وتستوى فى إيرادها ، فمثل هذه لا يطلق على الآخر فيها اسم السرقة من الاول ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص كقول أبى تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وهذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، فانه لما أنشد المعتصم قبل خلافته قصيدته التى مطلعها

ما فى وقوفك ساعة من باس نقضى زمام الاربع الادراس

وانتهى إلى قوله

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

قال الحكيم الكندى وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا من تشبيهه بهؤلاء ، وهذا معنى يشهد الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فانه يكون سارقا ، وكذلك قول المتنبىء فى عضد الدولة وولديه « أبى الفوارس وأبى دلف »

وأنت الشمس تبهر كل عين فكيف وقد بدت معها اثنتان

فعاشا عيشة القمرين يحيا بضوئهما ولا يتحاسدان

ولا ملكا سوى ملك الاعادى ولا ورثا سوى من يقتلان

وكان ابنا عدو كاثراه له ياءى حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبى الطيب وهو الذى ابتدعه ، يعين أن زيادة أبناء عدوه كزيادة التصغير لأنها زيادة نقص . وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو

يشكى المحب ويلفى الدهر شاكيه كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

كما زعم بعض علماء البيان ، لأنه ماخوذ من المثل « يلدغ ويصى » يضرب لمن يبتدىء بالأذى ثم يشكو . والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئا من الفاظ الاول فى معنى من المعانى ولو لفظة واحدة كان ذلك من أدل الدلائل على سرقته ... » .

وبعد أن أبان فى إفاضة أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التى لا يحصرها عد ، وبرهن على ذلك واستشهد له ، أخذ يشرح ألوان السرقات ويكثرها من الأمثلة . وقد جعل تلك الألوان

ثلاثة النسخ والمسخ والسلخ .

فقال عن النسخ إنه أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة فيه عليه ، مأخوذ من نسخ الكتاب . ولا يكون الا فى أخذ اللفظ والمعنى جميعا أو فى أخذ المعنى وأكثر اللفظ ، وعلى ذلك فهو ضربان ، الأول يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول طرفة .

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

مع قول امرىء القيس .

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتحمل

والثانى كقول أبى تمام .

محاسن أوصاف المغنيين جمة وما قصبات السبق الا لمعبد

مع قول بعض المتقدمين .

أجاد طويس والسريجى بعده وما قصبات السبق الا لمعبد

وقال عن المسخ إنه إحالة المعنى إلى مادونه ، مأخوذ من مسخ الآدميين قردة ، فهو قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة كقول المتنبى .

يرى أن ما مابان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

مع قول أبى تمام .

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل

فهو وان لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ، ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا وأعطى الورد جملا ، وهذا من أرذل السرقات .

ثم قال عن السلخ إنه أخذ بعض المعنى ، مأخوذ من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ ، وقد جعله ضروبا عد منها أحد عشر :—

١ — أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه مايشبهه ولايكون هو إياه ، وهذا من أدق السرقات مذهبا وأحسنها صورة ولا يأتى إلا قليلا كقول المتنبى .

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

مع قول بعض شعراء الحماسة .

لقد زادنى حبا لنفسى أننى بغيض الى كل امرىء غير طائل

والمعرفة بأن هذا أصل ذاك عسرة غامضة لا تتبين إلا لمن أعرق فى ممارسة الأشعار وغاص فى استخراج المعانى ، وبيانه أن الأول يقول إن بغض الذى هو غير طائل إياى مما زاد نفسى حبا الى ، والمتنبى يقول إن ذم الناقص إياى شاهد بفضلى :

٢ — أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد يأتى إلا قليلا كقول أبى تمام :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

مع قول عروة بن الورد .

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عـــذرا أو ينال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

فعروة جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائما مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف .

٣ — أن يؤخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وهذا من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق كقول البحترى .

فوق ضعف الصغير إن وكل الأمـــر اليه ودون كيـــد الكبار

مع قول أبى نواس

لم يخف من كبر عما يراد به من الأمور ولا أزرى من الصغر

٤ — أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة كقول المتنبى .

أأحبـــه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

مع قول أبى الشيص .

أجد الملامة فى هواك لذيذة شغفا بذكرك فليلمنى اللوم

وهـــذا من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة .

٥ — أن يؤخذ بعض المعنى كقول أبى تمام :

تدعى عطاياه وفرا وهى إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا
ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

مع قول أمية بن أبى الصلت .

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرىء بذل وجهه اليك كما بعض السؤال يشين

فأنه أتى بمعنيين، أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاء غيرك شين، وأبو تمام أتى بالمعنى الأول لا غير .

٦ — أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى أخر كقول مسلم .

إن قصر الرمح لم يمش الخطا عددا أو عرد السيف لم يهمم بتعريد

مع قول الأخنس بن شهاب .

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

٧ — أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى ، وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة كقول البحترى .

اذا اختربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

مع قول أبى تمام .

جذلان من ظفر حران أن رجعت مخضوبة منكم أظفاره بدم

٨ — أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا . وذلك من أحسن السرقات لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم فى القول وسعة باعه فى البلاغة كقول سلم الخاسر .

من راقب الناس مات هما وفاز باللذة الجسور

مع قول أستاذه بشار ، وبين البيتين لفظتان فى التأليف .

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

٩ — أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا أو خاصا فيجعل عاما ، وهو من السرقات التى يسامح صاحبها ، فمن العام الذى جعل خاصا قول أبى تمام .

أ ألوم من بخلت يداه وأغتدى للبخل تربا ساء ذاك صنيعا

مع قول أبى الأسود الدؤلى .

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

ومن الخاص الذى جعل عاما قول المتنبى .

ومايؤلم الحرمان من كف حارم كما يؤلم الحرمان من كف رازق

مع قول أبى تمام .

ولو حاردت شول عذرت لقاحها ولكن منعت الدر والضرع حافل

١٠ — أن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه كقول المتنبى .

ومن الخير بطء سيبك عن أسرع السحب فى المسير الجهام

مع قول أبى تمام .

هو الصنع إن يعجل فنفع وان يرث فللريث فى بعض المواطن أنفع

وهذا من المبتدع لا من المسروق ، فما أحسن ماأتى المتنبى بهذا المعنى فى المثال المناسب له .

١١ — أن يتحد الطريق ويختلف المقصد ، فمن ذلك قو النابغة .

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا . ولم أجد أحدا أغرب فيه فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده اليها إلا مسلم بن الوليد حيث يقول.

أشربت أرواح العدا وقلوبها خوفا فأنفسها اليك تطير

لو حاكمتك فطالبتك بذحلها شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هـــذا المعنى ، ولما انتهى الأمر فيه الى المتنبى أغرب وأبدع وحاز الأحسان بجملته وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره فقال .

تفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم

وما ضرها خلق بغـــير مخالب وقد خلقته أسيافه والقوائم

ثم أورد هذا المعنى فى موضع آخر فقال .

سحاب من الغقبان ترجف تحتها سحاب اذا استقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفى الأغراب والأعجاب ، وقال فى موضع آخر

وذى لجب لا ذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوءها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

وهـــذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الأحسان فى شعره الا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم ،

الموازنة — عنى ابن الأثير بالموازنة عنايته بالسرقة ، وتجلت هذه العناية منه فى ناحيتين بارزتين ، إحداهما ما أجراه من قول بين الثلاثة الشعراء أبى تمام والبحترى والمتنبى ، والأخرى ما عقد من موازنة تطبيقية فى بعض قصائدهم وقد يكون معهم غيرهم ، وهذا طرف من كلتيهما .

قال يقدم للموازنة بينهم ويوازن ، لما نصبت نفسى للخوض فى علم البيان ورمت أن أكون معدودا من علمائه ، علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما فى الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور .

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، واتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف ، فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فى كل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد البحترى وأبى الطيب المتنبى ، وهؤلاء هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم

غرابة المحدثين إلى فصاحة القـــدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحـكماء .

فأما أبو تمام فانه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتـكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الأغراب ، الذى برز فيه على الاضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ماأقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، ورياض فـكره برائضه ، أطاعته أعنة الـكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام ، فخذ منى فى ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذى علم عليم .

وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن فى سبك النظم على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد جاز طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق ، سئل أبو الطب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال ، أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى ، ولعمرى إنه أنصف فى حكمه وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، واللفظ المصنوع من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الافهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى فى ديباجة اللفظ إلى الدرجة العالية .

أما أبو الطيب المتنبى فانه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصر عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، ولـكنه حظى فى شعره بالأمثال والحـكم واختص بالابداع فى وصف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه ملثما ، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحرب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ، ما أدى إليه عيانه ، ومع هذا فانى رأيت الناس عادلين فيه

عن سنن التوسط ، فأما مفرط فى وصفه وأما مفرط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذره ، فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء ، ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ماضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقسامه خمسة ، خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها لوقاه الله شرها ، فانها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام .

ولسائل هاهنا أن يسأل ويقول ، ولم عدلت إلى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم فأقول ، إنى لم أعدل اليهم اتفاقا وإنما عدلت اليهم نظراً واجتهادا . وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك إلا عرضته على نظرى ، فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الاغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيبا للالفاظ من أبى عبادة ولا أنقش ديباجة ، ولا أبهج سبكا منه ، فاخترت حينئذ دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والالفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها مع ما بقى على خاطرى من غيرها .

وقال فيما عقد من موازنات تطبيقية بينهم ومعهم أحيانا غيرهم ، « اعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر ، أن يتوارد اثنان من الشعراء على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبى على وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان ، فأول إحداهما :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا خيال إذ آب الظلام تأوبا

وأول الأخرى :

فى الخد إن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر أو بيتين ، ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ، فان بعد المدى يظهر مافى السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر .

أما البحترى فانه ألم بطائفة مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزير أخاك بشرا

وهى من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم تسم قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الاطالة لأوردتها بجملتها ، لكن لغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه ، فمما جاء للبحترى فى قصيدته :

وما نقم الحساد إلا أصالة لديك وفعلا أريحيا مهذبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقـــاء ومخلبا
إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص زبرا
شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكا إذا الهيابة النكس كذبا
هزبرا مشى يبغى هزبرا وأغلبا من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة رآك لها أمضى جنانا وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لاعزمك انثنى ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

ومما جاء لأبى الطيب فى قصيدته .

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا
ورد إذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس فى غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه الا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا
فى وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرته الى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا
قصرت مخافته الخطا فكأنما ركب الكمى جواده مشكولا
ألفى فريسته وزمجر دونها وقربت قربا خاله تطفيلا
فتشابه القربان فى إقدامه وتخالفا فى بذله المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما متنا أزل وساعدا مفتولا
ما زال يجمع نفسه فى زوره حتى حسبت العرض منه الطولا
وكأنما غرته عين فادنى لايبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا
خذلته قوته وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا
سمع ابن عمته به وبخاله فمضى يهرول أمس منك مهولا
وأمر مما فر منه فراره وكفتله ألا يموت قتيلا
تلف الذى اتخذ الجراءة خلة وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا

وسأحكم بين هاتين القصيدتين . والذى يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذكره ، وهو أن معانى أبى الطيب أكثر عددا ، وأسد مقصدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشىء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فانه أتى بذلك فى بيت واحد هو قوله .

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

ثم انه تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفرده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت اليه ، والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره بشر فى أبياته الرائية ، لعلمه أن بشراً قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها ، ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر ، لأنه قصر عنه تقصيرا كبيرا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أدرك مبرزا .

ومما تقع فيه المفاضلة أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر . فمما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثيته بولدين صغيرين ، « لعبد الله بن طاهر ماتا فى نهار واحد » :

مجد تأوب طارقا حتى إذا ... قلنا أقام الدهر أصبح راحلا
نجمان شاء الله ألا يطلعا ... إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا ... لأجل منها بالرياض ذوابلا
لهفى على تلك الشواهد فيهما ... لو أخرت حتى تكون شمائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيكون بدرا كاملا
قل للأمير وإن لقيت موقرا ... منه يريب الحادثات حلاحلا
إن ترز فى طرفى نهار واحد ... رزأين هاجا لوعة وبلابلا
فالثقل ليس مضاعفا لمطية ... إلا إذا ما كان وهما بازلا
لا غرو إن فتنان من عيدانه ... لقيا حماما للبرية آكلا

إن الأشاء إذا أصاب مشذب منه اتمهل ذوا وأث أسافلا
شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ أو أن تذكر ناسيا أو غافلا
إلا مواعظ قادها لك سمحة إسجاح لبك سامعا أو قائلا
هل تكلف الأيدى بهز مهند إلا إذا كان الحسام الصاقلا

وقال أبو الطيب فى مرثيته بطفل صغير « لسيف الدولة »

فان تك فى قبر فانك فى الحشا وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكى على قدر سنه ولكن على قدر الفراسة والأصل
ألست من القوم الذى من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن فى أعطافه منطق الفصل
تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل
عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل
تخون المتابا عهده فى سليله وتنصره بين الفوارس والرجل
بنفسى وليد عاد من بعد حمله الى بطن أم لا تطرق بالحمل
بدا وله وعد السحابة بالروى وصدوفينا غـــلة البلد المحل
وقد مدت الخيل العتاق عيونها الى وقت تبديل الركاب من النعل
وريع له جيش العدو وما مشى وجاشت له الحروب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر الى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل واحد منها فى واديه مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا وأذكر الفاضل من المفضول فأقول ،

أما الذى اتفقا فيه فان أبا تمام قال .

لهفى على تلك الشواهد فيهمـــا لو أخرت حتى تكون شمائلا

وقال أبو الطيب .

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن فى أعطافه منطق الفصل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ومنطق الفصل ، وقال أبو تمام .

نجمان شاء الله ألا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال أبو الطيب .

بدا وله وعد السحابة بالروى وصدوفينا غلة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله وصدوفينا غلة البلد المحل لأنه بين قدر حاجتهم الى وجوده وانتفاعهم بحياته ، وأما مااختلفا فيه فان أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضا ، وذاك أن معناه أمتن من معناه ، ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه ، لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام وان كان أشعر عندى من أبى الطيب فان أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه من المعنى ، وأما الذى اختلفا فيه فان أبا الطيب قال .

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما .

إن ترز فى طرفى نهار واحد رزأين هاجا لوعة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفا لمطية إلا إذا ما كان وهما بازلا

فان قول أبى الطيب والشدائد للنصل أكرم لفظا ومعنى من قول أبى تمام إن الثقل انما يضاعف للبازل من المطايا ، وقول المتنبى أيضا .

تخون المنايا عهده فى سليله وتنصره بين الفوارس والرجل

أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما .

لا غرو إن فنان من عيدانه لقيا حماما للبرية آكلا

إن الأشاء اذا أصاب مشذب منه اتمهل ذرا وأت أسافلا

وكذلك قول أبى الطيب .

ألست من القوم الذى من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

تسليهم عليا وهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ أو أن تذكر ناسيا أو غافلا

إلا مواعظ قادها لك سمحة إسماح لبك سامعا أو قائلا

وبعد هاتين أشار ابن الأثير الى موازنة بين المتنبى والبحترى فى رثاء الأول أخت سيف الدولة بقصيدته التى أولها .

ياأخت خير أخ يا بنت خيرأب كناية بهما عن أشرف النسب

ورثاء الثانى لامرأة أيضا بقصيدته التى أولها .

غروب دمع من الأجفان تنهمل وحرقة بغليل الحزن تشتعل

مفضلا المتنبى أيضا بأنه انفرد بابتداع ما أتى به فى قصيدته ، فى حين أتى البحترى بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل ، ومن الواجب أنه إذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا فى غرض من الأغراض ألا يخرج عنه ، كالذى سلكه هذان الرجلان فى الرثاء بامرأة فان من حذاقة الصنعة أن يذكر ما يليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموقع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده . وأما غيره من مفلق الشعراء قديما وحديثا فانهم قصروا فيه عنه ، وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى فى رثاء والدة سيف الدولة مفتتحها :

نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال

وكفى بهما شاهدا على ما ذكرته من انفراده بالابداع فيما أتى به . والفتيا عندى بينه وبين البحترى ، أن أبا الطيب أنفذ فى المضيق ، وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحترى فانه أعرف بصوغ الألفاظ وحوك ديباجتها ، وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين فى اتفاقهما فى المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق فى المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهورا يعلم ببديهة النظر ، ويتسارع اليه فهم من ليس بثاقب الفهم ، وأما اختلافهما فى المعنى فانه يحتاج فى الحكم بينهما فيه ، إلى كلام طويل يعز فهمه ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، بل لا يتفطن له إلا الفذ الواحد من الناس . وكذلك أشار ابن الأثير الى موازنة أخرى بين البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة الأول التى أولها .

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد أما لكم من هجر أحبابكم بد

ومقطوعة الثانى التى أولها :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى أتيح له بالليل عارى الأشاجع

وكان حكمه أن البحترى أجاد فى وصف حاله مع الذئب ، وأن الشريف أجاد فى وصف الذئب نفسه . وينبغى أن نشير هنا إلى أن ابن الأثير أغفل فى هاتين الموازنتين المشار إليهما ذكر القصائد الأربع ، كما لم يذكر قصيدة بشر بن عوانة فى وصف الأسد ، وقد ذكرتها كلها فى كتاب المطالعة التوجيهية ، إذ كان القسم المختار من المثل السائر من نصيبى فى العمل به ، فليرجع اليها هناك ، اللهم إلا لامية البحترى فى رثاء امرأة لأنى لم أجدها فى ديوانه ولم أهتد إليها فى مرجع غيره ، ولذلك استعضت بمرثيته لبنت أبى نهشل الطوسى التى أخفق فيها كل الاخفاق ومطلعها :

أتبكى من لا ينازل بالسيـــف مشيحا ولا يهز اللواء

وانما ذكرتها هناك دلالة على أن البحترى وهذه نظرته إلى النساء لم يك من شأنه أن يحسن لهن الرثاء .

وبعـــد

فهذا ما عن لى ذكره عن تاريخ النقد الأدبى فى العصر العباسى على عهوده الأربعة ، أما بعد ذهاب تلك الدولة من المشرق ، فلم يك له مجال فى التاريخ ، لأن الأحداث توالت على الأدب فى شرق الدولة وغربها ، فجفت عيونه وصوحت رياضه ، ومن ثم عصفت بالنقد الزعازع وطوحت به الأعاصير ، ولله فيما أراد الحكمة ، ولنا منه العظة والاعتبار .

السباعى بيومى